الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عندما احتل المسلمون جبال الألب

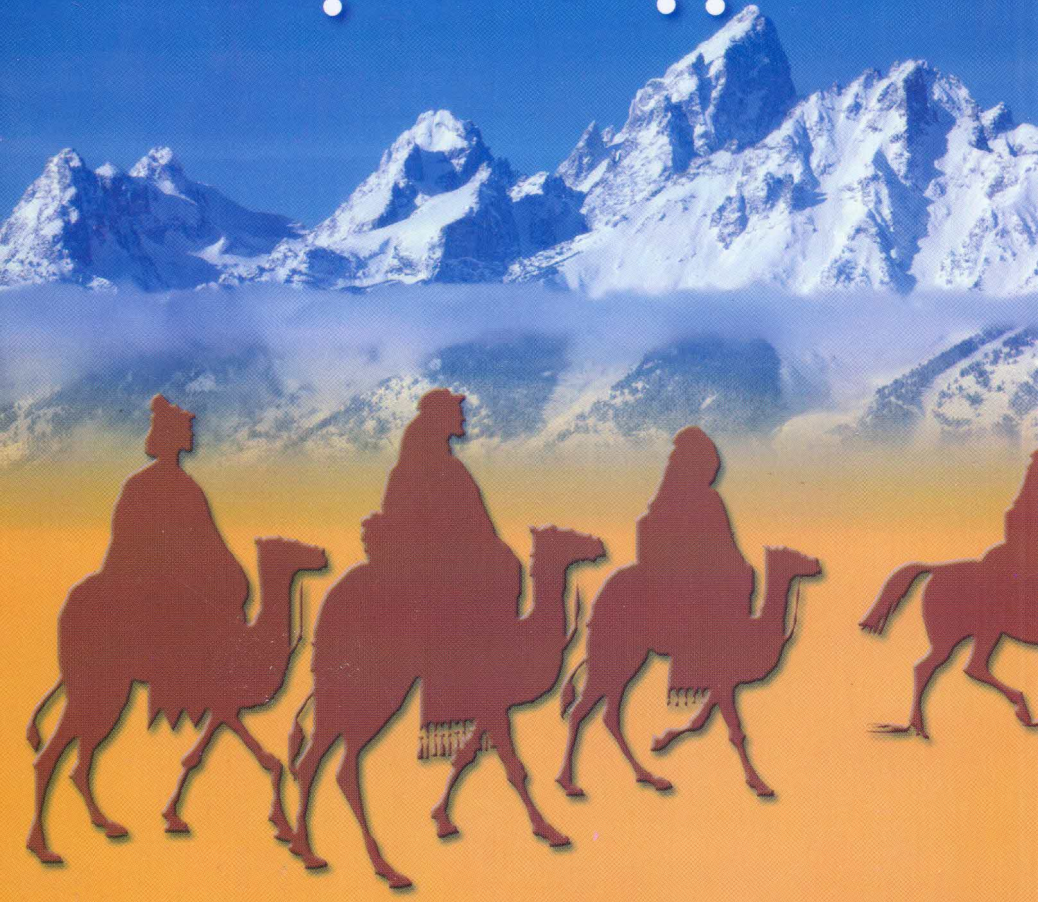

محمّد السمّاك

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

هذا الكتاب

قد تكون هذه هي المرة الأولى التي تفتح فيها صفحات مطوية من سجل العلاقات بين العالم العربي – الإسلامي وأوروبا.

فالوقائع تثبت الآن أنه لم يكن صحيحاً الاعتقاد بأن المسلمين وقفوا عند حدود إسبانيا الأندلسية في الغرب وعند حدود البلقان في الشرق.

إن هذه الدراسة تلقي الضوء على عدد من الوقائع التي تثبت أنهم احتلوا لعقود طويلة عدداً من المرتفعات في جبال الألب، وسيطروا على طرق المواصلات بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا، وأنهم اجتازوا هذه المرتفعات ووصلوا إلى العديد من المدن الواقعة في حوض نهر الرون.

كما أن هذه الوقائع تؤكد أنهم تركوا آثاراً لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم من قلاع ومساجد (تحوّلت إلى كنائس) ومقابر..

ومن المؤكد أنهم أدخلوا صناعات وزراعات لم تكن تعرفها المنطقة من قبل، ولا تزال تحمل أسماءها العربية. ولعل من المرجح أنهم تركوا أيضاً ذرية اعتنقت المسيحية فيما بعد وإن حافظت على بعض العادات والتقاليد.. ومنها الامتناع عن تربية الخنازير مثلاً!!

لقد اكتسبت جبال الألب حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية أهمية استراتيجية بالغة، فهي قلب أوروبا ورمز عنفوانها. ولذلك لم يولِ المؤرخون الأوروبيون اهتماماً استثنائياً بالفترة التي كانت هذه الجبال في قبضة العرب المسلمين، ولعل من أسباب ذلك أيضاً أن العرب لم يقيموا فيها دولة كما فعلوا في الأندلس.. وقد حاولت هذه الدراسة أن تلقي الضوء على أسباب ذلك أيضاً.

كما تحاول أن تقدم أجوبة على بعض الأسئلة المثيرة للجدل، ومنها: لماذا احتلّ العرب جبال الألب؟ وماذا فعلوا هناك؟ ومن أين جاؤوا؟ وماذا تركوا وراءهم؟.. وكيف كانت علاقتهم بالسكان الأصليين؟ وبدولة الأندلس؟.. وبدولة الفاتيكان؟..

وكيف تركوا تلك المناطق الجبلية؟ وبموجب أي معادلات سياسية – عسكرية؟ وأي آثار تركت كل هذه الأمور على العلاقات الإسلامية – المسيحية؟ وعلى العلاقات بين الشرق والغرب؟

المؤلف

صدر للمؤلف أيضاً
من منشورات
الدار العربية للعلوم–ناشرون

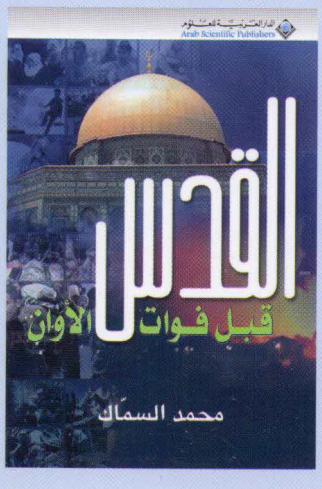

ISBN 9953-29-212-4
9789953292120

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

عندما احتل المسلمون
جبال الألب

عندما احتل المسلمون جبال الألب

تأليف

محمد السماك

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

ردمك: 4-212-29-9953

الطبعة الأولى

1427 هـ - 2006 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

في الوقائع التاريخية

632: وفاة الرسول محمد (ص).

711: قوات طارق بن زياد تدخل اسبانيا.

726-719: القوات الاسلامية تسيطر على ناربون Narbonne وكاركاسون Carcassone ونيم Nimes. الخ. وتتوسع في وادي الرون Rhone شمالاً حتى ليون Lyon.

732: انتصار شارل مارتل في معركة بواتيه Poitiers (تور - Tours)

759-737: استرجاع عدد من المدن الفرنسية من المسلمين.

793: قيام المسلمين بغزوات جديدة في فرنسا عبر جبال البيرينيه Pyrenees.

820-810: هجوم المسلمين على جزيرتي سردينيا Sardinia وكورسيكا Corsica.. الخ واحتلال جزر البليار Ballearie ونيس Nice وأجزاء من جنوب إيطاليا.

827: الاسطول الاسلامي يهاجم بريتاني Brittany.

869-846: المسلمون يهاجمون شواطئ جنوب فرنسا، وخاصة المناطق حول ارل Arles ويقيمون مرفأ في كامارغ Camargue.

891-888: انشاء المستوطنة الاسلامية في فراكسيناتوم Fraxinetum.

906: المسلمون يسيطرون على ممر جبل سينيس Mont Cenis، ويهاجمون مدناً وأديرة في المنطقة بما فيها

نوفاليس Novales وأولكس Oulex وسوسا Susa وأكوي Acqui.

911: المسلمون يسيطرون على جميع الممرات في غرب جبال الألب.

915-918: المسلمون يهاجمون امبرون Embrun ومورين Maurienne وفينا Vienne الخ..

920: المسلمون يهاجمون بيامونت الايطالية في الشرق Piemonte ومرسيليا Marseille وأكس- أون - بروفانس Aix-en-Provence في الغرب. الخ..

929-933: المسلمون يسيطرون على الممرات الشرقية في جبال الألب ويهاجمون وادي الرون الأعلى Rhone.

931: البيزنطيون يهاجمون مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum دون جدوى.

936-939: هجوم على فاليه Valais وريتيا Rhaetia وشمال سافوي Savoy ومدن اخرى حول بحيرة جنيف بما في لك جنيف ولوزان.

940: هجوم على شور Chur وسان موريس .St. Maurice

942: المسلمون يحتلون نيس Nice وغرونوبل Grenoble. والملك هيغو Hugo يهاجم بالاشتراك مع البيزنطيين مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum.

950-951: الادارة الإسلامية المنظمة للممرات الألبية.

952-954: هجوم على دير سانت غال St. Gall في برنرجورا Berner Jura.

956: الملك اوتو Otto يوفد بعثة دبلوماسية إلى قرطبة.

957: آخر هجوم مسجل في الشرق (رايتيا Rhaetia)

965-968: جلاء المسلمين عن غرونوبل Gronoble.

970: اخلاء سافوي Savoy

975-983: اخلاء الممرات الرئيسة في شمال الألب. والهجوم الكبير والأخير في ممر سان برنارد St. Bernard (ضد القديس مايولوس St. Maiolus)

975-983: هجوم تحالف الأمراء المسيحيين على فراكسيناتوم Fraxinetum واخلاء المسلمين للمدينة والقضاء على المستوطنة.

مطلع القرن الحادي عشر: هجومات إسلامية جديدة على جنوب فرنسا.

اواسط القرن الحادي عشر: المسلمون يخلون جنوب إيطاليا وصقلية.

مُقَدِّمَة

هناك اعتقاد عام بأن المسلمين العرب بعد ان دخلوا اسبانيا في عام 711 وأقاموا فيما بعد دولة الأندلس خسروا معركة بواتييه Poitiers في جبال البيرينيه Pyrénées في عام 732 وان خسارتهم تلك تعود إلى كونهم " صحراويين" لا يتحملون البرد ولا الطبيعة الجبلية الوعرة بما فيها من غابات ووديان.

وهناك اعتقاد عام ايضاً بأنهم بعد تلك الهزيمة التي لحقت بهم على يد شارل مارتل Charles Martel انغلقوا على أنفسهم في الأندلس حتى دالت دولتهم بسقوط غرناطة.

هذه الدراسة تحاول ان تقدّم وقائع علمية تثبت ان هذه الاعتقادات ليست صحيحة. كما تحاول ان تبيّن كيف ان المسلمين وصلوا إلى جنوب فرنسا واحتلوا مدناً مثل ليون وغرونوبل، كما وصلوا إلى سويسرا وحاصروا جنيف ولوزان وسيطروا على شمال إيطاليا، وانهم أقاموا المستوطنات في جبال الألب وأشرفوا بصورة مباشرة ولمدة قرن تقريباً على الممرات الألبية الستراتيجية في الغرب وفي الشرق على حد سواء.

ثمة آثار تركها العرب المسلمون في هذه المناطق جرى التعتيم عليها طويلاً، إلا ان العلماء بدأوا التنقيب عنها مؤخراً ولو على استحياء. ولا يقتصر التنقيب في بقايا القلاع أو حتى الأديرة (التي كانت مساجد) فقط، انما في بعض العادات والتقاليد

الاجتماعـــية؛ ومنها مثلاً عادة الامتناع عن تربية الخنازير ؛ وفي أسماء العديد من المواقع التي تقع في عمق جبال الألب والمتداولة حتى اليوم.. وكذلك في أسماء بعض العائلات من السكان الحاليين في بعض الأودية الجبلية.

وتعتمد هذه الدراسة أساساً على بحث أعده البروفسور مانفرد وينر Manfred Wenner أستاذ التاريخ في جامعة اليونز الأميركية ونشـــرته مجلة دراسات الشرق الأوسط Middle East Study في عددها رقم 12 الصادر عام 1980 تحت عنوان: "الوجود العربي – الاسلامي في وسط أوروبة في العصر الوسيط".

ان الوقـــائع التاريخية والتي لا يزال بعض آثارها قائماً حتى اليوم تثبت انه بعد ثلاثة قرون على معركة بواتييه التي تعتبر بداية نهايـــة التوســـع العربي – الاسلامي في أوروبة، حافظ المسلمون علـــى تواجدهـــم فـــي عدة مناطق من أوروبة خارج شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا والبرتغال). ومع ان هذا التواجد كان موضع اهمال أو تناسٍ في اطار الصورة الأوسع للعلاقات الاسلامية – المسيحية خـــلال فترة القرون الوسطى، فقد تبيّن للباحثين المتخصصين في القرنيـــن التاسع عشر والعشرين أن المسلمين تركوا وراءهم تراثاً اكبر بكثير مما كان يُعتقد من قبل.

ولعل أكثر مواقع التواجد اثارة للاهتمام تلك التي أسفرت عن ســـيطرة المســـلمين العرب على الممرات الاستراتيجية في سلسلة جبال الألب التي تربط إيطاليا بفرنسا وسويسرا وتالياً ببقية أوروبة وذلك لعدة عقود في القرن العاشر الميلادي.

ان هذه الدراسة هي ايجاز سريع لأحداث تلك المرحلة. وهي تحـــاول تحلـــيل الدوافع التي أدّت إلى التوغل الاسلامي في وسط اوروبة الغربية، وإلى اسلوب ادارة المسلمين للمناطق التي احتلوها والتـــي لم تكن جزءاً من الدولة الاسلامية في الأندلس، ولا كانت دولـــة إسلامية لذاتها. كما تحاول إلقاء الضوء على الدروس التي يمكن استخلاصها من تلك المرحلة عندما سيطرت القوات العربية – الاســـلامية علـــى جـــزء هام من طرق المواصلات الأوروبية الغربية.

في الوقائع:

في وقت ما حوالي عالم 889 ميلادية، نزلت قوة صغيرة من المسلمين العرب (قوامها حوالي 20 رجلاً) في منطقة فرنسية على ســـاحل الـــبحر المتوسط قريبة من منطقة تعرف اليوم باسم "سان تروبـــيز St. Tropez"[1]. وكانت هذه المنطقة تُعرف في القرون الوســـطى باسم "فراكسيناتوم Fraxinetum". اما اليوم فانها تعرف باســـم "فرينيه Frainet" وهي تقع في اقليم الـــ" فار Var"، جنوب فرنسا.

ويبدو ان الموقع والمحيط العام كانا مناسبين للمسلمين العرب الذين أقاموا التحصينات الدفاعية، ومن ثم استقبلوا بعد عدة سنوات هجرات متلاحقة، بما في ذلك هجرات من النساء والأطفال.

شـــكّل جـــبل مجاور للموقع يُعرف اليوم باسم جبل الـــ"مور

(1) Liudprand, Antapodosis، ترجمة F.A. wright (لندن 1930) ص ص 33–34

Maures " (وهـو الاسم الذي كان يطلقه الأوروبيون على عرب الأندلـس) حجر الزاوية في منظومة الدفاع ضد الهجمات البربرية. ومع الوقت نمت هذه المستوطنة حجماً وسكاناً.

ومـا ان تمّ تحصين هذه المستوطنة ضد اي هجوم معاكس، حـتى بدأ العرب المسلمون توسيع هيمنتهم إلى الممالك المجاورة، ومنها مملكة بورغوندي Burgundy، ومملكة إيطاليا Piedmont. ولمـا لم تبدِ تلك الممالك مقاومة تذكر، ولما كانت عائدات الهيمنة مجـزية، فقد تمكنت المستوطنة العربية الاسلامية في فراكسيناتوم Fraxinetum مـن جذب المزيد من موجات العرب المسلمين من اسبانيا الاسلامية (الأندلس)، أو عبرها.

واستناداً إلى مصادر معاصرة فان السبب الرئيس الذي أدى إلـى توفـير حرية الحركة نسبياً في هذه المناطق، هو انها كانت مشـتتة الـولاءات بين عدد كبير من الأمراء والنبلاء الأوروبيين الصـغار. وكـان الواحـد من هؤلاء الأمراء حتى يستقوي على الآخريـن، ولا يـتورع حتى عن التحالف مع المهاجمين العرب المسلمين[2].

وطوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العاشر، اي حتى عام 930 ميلادية، لم يقم القادة الأوروبيون المحليون بأي عمل مضاد يذكـر. وخلال هذه السنوات نجح العرب المسلمون في اقتحام أو تدمير جزئي أو كلي لعدد من المدن مثل مدينة "أستي Asti" ومدينة

---

(2) المرجع السابق.

"آكـــوي Acqui" في الشرق، وكذلك عدد من الأديرة في "نوفاليز Novalise" و"أولكس Oulex"، و"أمبرون Embrun" "وفينّا Vienne " و"فالنسيا Valence " في الغرب ؛ كما شنوا هجمات اساسية على عـــدد آخـــر من المدن، مثل مدينة "اكس أون بروفانس Aix-en-Provence "، و"مرسيليا Marseille" في الجنوب. (3)

وأهم من ذلك كله، تمكن العرب المسلمون في ذلك الوقت من السيطرة على الممرات الثلاثة الاساسية بين فرنسا وإيطاليا. وهي: "ســـان بـــرنارد St. Bernard"، وجبل "سانيس Mt. Cenis" وجبل "جنيف Mt. Geneve"، وبذلك اصبحوا قادرين على السيطرة على طرق التجارة الأوروبية، وعلى التحكم بحركة الحجاج المسيحيين من المناطق الشمالية والغربية والذين يستخدمون هذه الممرات في طريقهم الى الفاتيكان في روما(4).

ويـــبدو ان هذا العامل الأخير هو الذي أدى إلى بذل اول جهـــد أوروبـــي – مسيحي جدي لاخراج العرب المسلمين من مســـتوطنة "فراكسيناتوم Fraxinetum". ففي عام 931 هاجمت وحدات من الاسطول اليوناني البيزنطي المستوطنة من البحر. ولكـــن يبدو ان هذا الهجوم لم يكن مؤثراً، ذلك ان الوقائع عن احـــداث ذلك العام، تثبت ان العرب المسلمين كانوا لا يزالوان يسيطرون على الممرات الرئيسة في جبال الألب الغربية. بل ان

---

(3) راجع: Le Royaume de Bourgogne للمزيد من التفاصيل حول هذه الأديرة.

(4) John E. Tyler, The Alpine Passes (Oxford - 1930)

عملياتهم ازدادت حجماً وضراوة، ذلك أنهم، وعلى سبيل المثال، كانوا وراء مقتل رئيس الأساقفة روبرت Archbishop Robert مطران تور Tours، وهو في طريق عودته من روما عبر أحد الممرات الغربية.

وفي العقد التالي، ازدادت بشكل كبير مساحة الأراضي الخاضعة لسيطرة العرب المسلمين. وتجاوزت عملياتهم شمال الألب حتى وصلوا إلى الدير الشهير في سان موريس St. Maurice في وادي الرون Rhone. وفي الوقت نفسه تركوا آثارهم في شمال الوادي (الرون) ايضاً. وغنموا مواقع المطرانية في شير ريتيا Chur in Rhaetia.

ولأن الهنغاريين بدأوا في ذلك الوقت غزواتهم واجتياحاتهم لوسط وغرب أوروبة، فان الوقائع التي شهدتها تلك العقود من القرن العاشر تتسم بحالة من الإرباك، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها دائماً. من أجل ذلك فانه ليس واضحاً تماماً اي طريق سلكه المسلمون العرب في تقدمهم إلى ما يعرف اليوم بجنوب سويسرا، ثم توغلهم إلى المناطق الشمالية الأبعد. الا ان هناك ثلاثة طرق محتملة، لكل منها ما يبرر الاعتقاد بأنهم سلكوه. كما ان لكل منها من يشكك فيه. أول هذه الطرق المحتملة هي ان المهاجمين العرب المسلمين تقدموا بشكل منهجي مع وادي الرون Rhone Valley، واجتازوا ممر فوركا Furka Pass ومن هناك تابعوا خط الراين Rhine. ويقدم البعض دليلاً على ذلك أسماء عربية لبعض المواقع (مثلاً برج السراسين – اي برج المسلمين العرب) قرب مدينة

فافي Vevey السويسرية، ووجود مقبرة في منطقة جنيف للمسلمين العرب.

امـــا الطـــريق الثانـــي الذي يحتمل ان يكونوا قد سلكوه فهو طريق جبل سينيس Mont Cenis عبر السهول الايطالية الشمالية، شـــمالاً حـــتى سويســـرا اليوم عبر ممري برناردين Bernardin وسبتيمر Septimer. غير ان عدم توفر سجلات عن آثار عمليات قـــام بهـــا المســـلمون العرب في المدن المجاورة للممرين أو في ضواحيهما، تلقي بعض الشك على هذا الاحتمال.

امـــا الاحـــتمال الثالث فهو التقدم عبر ممرّ سان برنار St. Bernard ومن ثم شمالاً عبر سلسلة أودية التلال الألبية، ومواصلة التقدم شمالاً عبر الممرات الطبيعية الأخرى: جبل مورو Monte Moro (جبل المغاربة)، ثم لوقمانير Lukmanier (لقمان) وغيرها. وهذه الطريق وفّرت لهم مواجهة الحد الأدنى من المقاومة، ثم انها تحمـــل عـــدداً كبيراً من اسماء المواقع التي قد توحي بأنها عربية الأصل[5].

علـــى أي حال، وأياً كانت الطرق التي سلكوها، يبدو انه في العقد الثالث من القرن العاشر، استقر العرب المسلمون بشكل جيد في بعض المدن الايطالية الشمالية الواقعة في وديان التلال الألبية (علـــى سبيل المثال: فيرشيلي "Vercelli"). وسيطروا على الأقل على الطرق الرئيسة في الألب التي تربط الشمال بالجنوب. وهي:

---

(5) صفحة 186-187- Liudprand.

سـان بـرنارد الكبـير Great St. Bernard، وبيرنهارديـن Bernhardin وسـبتيمر Septimer، ومع احتمال سيطرتهم ايضاً علـى جبل مورو Mont Moro ولقمانير (لقمان)، وربما سيمبلون Simplon ايضاً.

مـرة جديـدة أدى توسع المسلمين العرب، وطبيعة العمليات التـي كـانوا يقومون بها، إلى تحفيز الأوروبيين لبذل المزيد من الجهـود المشـتركة والمنسـقة مـن أجـل تدمـير فراكسيناتوم Fraxinetum، باعتبارها قاعدة العمليات الإسلامية. ومن ذلك قيام قوات تابعة للملك الايطالي هيغو Hugo بشن هجوم مشترك على المدينة بالاشتراك مع البيزنطيين.

واسـتناداً إلـى وقائع معاصرة لتلك الفترة، كانت سيطرة اليونانيين على البحر من جهة، والهجوم البري للملك هيغو عبر جـبل مور Mont Maures من جهة ثانية، على قاب قوسين أو أدنـى من النجاح. ولكن الملك هيغو الذي فوجئ بمنافس شديد المراس على عرشه أوقف الهجوم وارتد إلى الداخل في محاولة مـنه لقطـع الطريق أمام منافسه، ولتثبيت مستقبله قائماً على العرش الايطالي.

ففي ذلك الوقت، ادعى بالعرش الكونت بيرينغار Berengar من ايفريا Ivrea وحشد الدعم لتأييد إدعاءاته. وحاول بشكل خاص الحصـول علـى دعم هيرمان Hermann من صوابيا Swabia، واجـتاز مـن اجل ذلك ممر سان بيرنار الكبير في طريقه شمالاً

للحصول على المساعدة الضرورية. اضطر الملك هيغو إلى إلغاء هجومه على مستوطنة "فراكسيناتوم" القاعدة العربية، ودخل بدلاً من ذلك في حلف مع المسلمين العرب. وبموجب هذا الحلف تمكن العرب المسلمون من السيطرة على جميع ممرات الألب من الغرب (جبل جنيفر Mont Genevre) إلى الشرق (ممر سبتيمر Spetimer).

وعلى الرغم من ان الأمور إستتبّت لهم، فان المسلمين العرب استناداً إلى بعض الوقائع، شنوا مزيداً من الهجمات على المناطق الواقعة في شمال الألب. وعلى سبيل المثال هوجمت شور Chur أكثر من مرة، كما هوجمت سان غالين St. Gallen التي تقع بالقرب من بحيرة كونستانس Constance وذلك في عام 954 ميلادية وهو العام نفسه الذي وقعت فيه ايضاً مدينة غرونوبل Grenoble في الغرب بأيدي العرب المسلمين.

يبدو ان المسلمين العرب بلغوا في تلك الفترة أوج قوتهم، وبدأوا بعد ذلك رحلة التراجع. وعلى الرغم من وجود دلائل تعود إلى عام 972 (من هذه الدلائل بشكل خاص فرض ضريبة على سان مايولوس St. Maiolus في كلوني Cluny) تؤكد سيطرتهم على سان برنارد St. Bernard، فان ثمة دلائل أخرى معاصرة لها تتوافق مع بداية التراجع العام في عملياتهم.

(اضافة إلى ذلك هناك وقائع مسجلة عن اعتناق المسيحية من قبل عناصر من الوثنيين في المناطق الجبلية.وهو أمر استمر حتى

بدايات القرن الحادي عشر) [6].

وفـــي اواخر عام 960 استرجع الأوروبيون مدينة غرونوبل Grenoble مـــن المسلمين العرب، كما ان مجموعة من الممرات الجبلـــية التي كان يعبرها ملوك أو شخصيات سياسية مرموقة لم تعد بيدهم أيضاً.

وفي عام 975 (983) جرت محاولة جديدة للسيطرة على القـــاعدة العربية – مستوطنة فراكسيناتوم، قام بها تحالف من النـــبلاء: وليهام Duke Wilhelm نبيل ارليز Arles، والكونت اردويـــن Arduin، نبيل ايفريا Everea وتورين Turin، وربما الكونت روبالد Robald، نبيل البروفنس Province.

هـــذه المـــرة نجحت المحاولة الأوروبية المشتركة وتمت الســـيطرة علـــى فراكسيناتوم. فتشتت سكانها المسلمون وطُرد بعضهم، وحُوّل بعضهم الآخر بالقوة إلى المسيحية، وأُجهز على بعضهم، وبيع البعض الآخر عبيداً في سوق النخاسة. (وقد بقيت ذريـــة هـــؤلاء عبيداً أو مستعبدين في المنطقة حتى بعد مرور اربعة قرون). ويبدو ان القليل جداً منهم تزوج واستقرّ محلياً[7].

---

(6) نظراً للشهرة الواسعة التي كان يتمتع بها مايولوس فان الحادث الذي تعرض له على يد المسلمين العرب وفر لنا أوسع تفصيل مسجل عن وقائع الاصطدامات التي جرت في الممرات الألبية بينهم وبين السكان المحليين.

(7) G. de Rey, Les Invasions des Sarrasins en Provence - Marseille: Typographie Marius Olive, 1878, p.p. 192-193.

الدوافع:

من الصعب الجزم بدقة في أسباب اقامة مستوطنة فراكسيناتوم. فاستناداً إلى العديد من الكتّاب (بما في ذلك وقائع تلك المرحلة)، كان غرب البحر المتوسط مسرحاً لهجومات مسلحة متبادلة بين المسلمين والمسيحيين، الا ان اليد العليا كانت للمسلمين الذين وصفهم الكتّاب الغربيون والمؤرخون منهم بالقراصنة، واتهموهم بالتسبب بزعزعة التجارة والحياة الاقتصادية الأوروبية. واستناداً إلى ذلك تكوّن اعتقاد بأن عاصفة هوجاء ربما تكون قد دفعت إلى الشاطئ المجموعة الصغيرة التي اقامت تلك المستوطنة. وهو اعتقاد يوحي بأن قيام مستعمرة فراكسيناتوم كان مجرد صدفة!!

ولكن هناك نظرية اخرى تقول انه خلال عهد الأمراء (لاحقاً الخلفاء) في قرطبة، اصبح تقليداً القيام بغزوات وحملات عسكرية متواصلة على مناطق الحكام المسيحيين، وهي المناطق الموجودة اليوم بفرنسا واسبانيا.. وكانت تلك الغزوات تسمى بـ "الصيفية" لانها كانت تجري خلال فصل الصيف. ويبدو ان الهدف الاساس من وراء تلك الغزوات الصيفية هو الدفاع عن الدولة العربية الإسلامية في الأندلس بقطع طرق وصول الأوروبيين إليها أو الالتفاف حولها. إلا أن ثمة اعتقاداً آخر يقول إن الهدف كان الالتزام الديني بركن الجهاد، والذي لا يمارس الا خارج حدود دار الاسلام[8].

---

(8) أنظر فيليب حتي – تاريخ العرب (الطبعة السادسة 1978) ص 493 و601.

وبما ان المشاركين في الغزوات كانوا يحصلون على مكاسب ومغـــانم كثـــيرة، فيبدو واضحاً انه كان هناك هدف آخر وراءها، وهو زيادة الثروات الشخصية للطامحين والمغامرين. ولعل هذا ما يفســـر علـــى ســـبيل المـــثال، مشاركة مسيحيين ويهود في تلك الغـــزوات، كما تؤكد تلك الوقائع. على اي حال ألحقت "الصيفية" بالســـكان المحليين صعوبات كثيرة. ذلك انه بالرغم من المبالغات المســـيحية حول السلوك الاسلامي، فمن الواضح ان غزو وتدمير القرى الصغيرة والقضاء على المحاصيل الزراعية خلال المعارك كان سلوكاً عاماً.

وهناك مؤشرات إلى ان بعض هذه الغزوات على الأقل، كان يُنفذ من اجل الحصول في الدرجة الأولى على أسرى من الرجال يطلـــق عليهم اسم " الصقالبة". وكانوا يُنقلون إلى اسبانيا ومن ثم ينضـــوون في الخدمة الشخصية للأمير / الخليفة. وبما انهم كانوا جبلييـــن أشـــداء فكـــان يعتمد عليهم في القوات المسلحة والحرس الشخصـــي، وكـــانوا يُدرّسون ويُدرّبون في المعاهد الاسلامية من اجـــل هذا الهدف، ولذلك فان هذه العملية تشبه ما قام به سلاطين بنـــي عثمان -فيما بعد- الذين كانوا يجندون ويوظفون المسيحيين الأسرى من مناطق البلقان (قوات الانكشارية). وفي الحالتين غالباً ما كان السجناء الذكور يُخصون[9].

وتشـــير كـــل مـــن السجلات الاسلامية والمسيحية معاً إلى

---

(9) Proeger, .S. Ronart, Concise Encyclopedia of Arabic Civilization (N.Y .1966) P.P. 339-340

ممارســـة عمليات الحصول على "الصقالبة" من مختلف المناطق، رغـــم انـــه يـــبدو ان المصدر المفضل كان وادي الرون Rhone وشمالاً حتى ميتز Metz وفردان Verdun.

وممـــا يثـــير الاهـــتمام، ان الـــيهود في هذه المنطقة تصرفوا باســـتمرار كوسطاء بين الاسبان المسلمين والمناطق الأوروبية التي كانت تزودهم بالرجال للخدمة العسكرية وقد ساهم يهود منطقة براغ Prag، وهـــي مركـــز آخر للتزود بالرجال في هذا النوع من التجارة بصـــورة خاصة. مع ذلك فاننا لا نعرف ما اذا كان هؤلاء الوسطاء الـــيهود قـــد استقدموا من اسبانيا للقيام بهذه المهمة، أم انهم كانوا من أبناء تلك المناطق، وكانوا بالتالي يقومون بنشاطهم التجاري كأعضاء في الجالية اليهودية المحلية[10].

ان مصدر كلمة صقالبة نفسه كان موضع جدال بين اللغويين. وذلك لان الرحالة العرب في القرون الوسطى كانوا يطلقون على الشـــعوب الســـلافية فـــي أوروبـــة الوسطى اسم صقلبي للمفرد، وصقالبة للجمع. ولا يعرف ما اذا كان هذا اللفظ العربي مشتق من اصل لاتيني اي من كلمة اسكلافوس Esclavus ومعناها العبد، أو من الكلمة العربية للسلاف. ويبدو انه يمكن العودة بها إلى اي من

---

(10) ان الدور الذي لعبه اليهود كوسطاء أو متعاونين أو شركاء مع المسلمين العرب يحتاج إلى المزيد من البحث، ذلك انه كان هناك اعتقاد واسع ان اليهود لعبوا بالفعل دور "الطابور الثالث" لمصلحة المسلمين. وقد اتهموا في ظروف عديدة بأنهم وجهوا الطعنات إلى الدفاعات المسيحية ضد المسلمين. وبسبب هذا الاعتقاد فرض شارلمان وغيره من الحكام الفرانك قيوداً معينة على اليهود في القرنين الثامن والتاسع.

المصدرين.

النماذج الادارية:

من المتفق عليه بصورة عامة ان الجيوش العربية الاسلامية التـــي اقامـــت الامـــبراطورية المترامية الأطراف في القرن الذي اعقب وفاة الرسول محمد (ص) كانت قد استحدثت مبادئ متطورة نســـبياً لادارة شـــؤون الاراضـــي والشـــعوب التـــي خضـــعت لاحـــتلالها[11]. ورغم هذه المبادئ، يبدو ان العناصر المتقدمة من الجـــيوش المنتصـــرة كانت اقل اهتماماً بجماليات الادارة العامة. فالقانون الذي استحدث أو الذي جرى تطويره للتعامل مع شعوب الاراضـــي الجديدة الخاضعة للادارة الاسلامية، لم يكن باستمرار موضع التزام من القوات العسكرية خاصة في المراحل الأولى من الفتح.

إذ انـــه مـــا ان يثبّـــت الاحـــتلال اقدامـــه، حتى يبدأ العمل بالاجراءات الادارية التي كانت تعكس قدراً كبيراً من التسامح مع الشـــعوب المحتلة ومع معتقداتها وممارساتها الدينية والاجتماعية. وليس هذا هو الموضع المناسب الان للحديث – على سبيل المثال – عـــن الانجـــازات الادارية والثقافية للادارة العربية في اسبانيا وصقلية أو في غيرهما من الاراضي التي جرى أسلمتها. غير انه يـــبدو ان السؤال الهام في هذا الشأن، هو: متى ولأي سبب كانت

---

(11) راجع ماجد خدوري (War and Peace in the Law of Islam - Baltimore, 1955).

الجيوش العربية وقادتها يقررون وضعية المنطقة الجديدة ووضعية سكانها، وبالتالي تحديد النماذج الادارية التي كانت تطبق عليها؟ فبالرغم مما كان يتمتع به الخليفة في قرطبة من مواصفات كريمة وايجابية حتى بشهادة أعدائه، فان السجلات الأوروبية عن تلك المنطقة تتضمن معلومات عن حملات اسلامية في المناطق الأوروبية بعد هزيمة بواتييه Poitiers، وهي سجلات حافلة بتقارير وصفية عن سلوك معاكس. فإلى ماذا يمكن ان نعزو هذه النماذج البائسة من سلوك القوات العربية الاسلامية؟.

من المؤكد انه من الصعب التحقق بدقة في هذا الوقت المتأخر من صحة هذه الاتهامات أو من نماذج السلوك التي كانت ترتبط بها. ولكن هناك ما يبرر بوضوح التعامل بشيء من الريبة والشك مع المصادر المسيحية المتعلقة بالمسلمين العرب. مع ذلك يبدو انه بالإمكان التوصل إلى استنتاجات عامة. فمن اللافت للانتباه اننا لا نملك مصدراً عربياً واحداً معاصراً عن تلك الأحداث التي جرت هناك. علماً بأنه يمكن في المستقبل القاء الضوء على بعض هذه المصادر التي لم تعلن أو التي لم يسمح بالإعلان عنها حتى اليوم. ويبدو مشروعاً في هذه المرحلة، ان نستنتج بأن علية القوم في قرطبة، لم يكترثوا كثيراً للنشاطات التي كانت تقوم بها مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum. وفي الواقع فانه رغم وجود أدلة تشير إلى ان اعداداً كبيرة من المسلمين العرب كانوا معنيين بنشاطات المستوطنة على مدى مائة سنة، فان المعلومات الجغرافية والسياسية والاجتماعية عن أوضاع المنطقة

التي سيطروا عليها لم تجد طريقها إلى بقية اوروبة[12].

وعلى الرغم من ان هناك دلائل على وجود اتصالات تجارية متطورة، وعلى الرغم من اننا نعرف من مصادر اوروبية وعربية انه جرى على الاقل اتصال دبلوماسي واحد بين الأوروبيين المسيحيين (الملك اوتو الأول Otto) والخليفة في قرطبة (عبد الرحمن الثالث)، وعلى الرغم من اننا نعرف أيضاً ان هدف هذا الاتصال كان التمني على الخليفة وقف مساعداته إلى مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum، فان كل ما يتضمنه هذا العرض من الأحداث لم يأت على ذكره المؤرخون المسلمون، كما انه لم يرد في اي من وثائقهم[13].

ومن شأن ذلك ان يقدم لنا دليلاً حول أحد الاستنتاجين التاليين:

1 - ان نشاطات مستوطنة فراكسيناتوم كانت في كليتها أو في معظمها تقوم بها قوات غير نظامية. اي قوات متجمعة من القراصنة والمرتزقة (بمن فيهم مسيحيون ويهود ومسلمون)

---

(12) راجع علاء الدين سامرائي، Some Geographical and Political information on western Europe in the Medieval Arabic Sources" The Muslim World" P.P. 304-322.

(13) يمكن الاطلاع على تفاصيل البعثة التي ترأسها الراهب جان دي غورز de Gorze Jean إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث حوالي العام 956، في Ponpardin صفحة 94-96. ويبدو من تلك الوقاع ان البعثة لم تترك أي أثر يذكر على سلوك الخليفة، علماً بأنه لا يوجد تسجيل لها في المراجع العربية.

من دون ان يكون بينهم احد من العلماء، وبالتالي من دون أن يكون لهم هدف ديني أو سياسي. والدليل على ذلك أنهم لم يقيموا دولة، كما فعلوا في المناطق الأخرى التي دخلوها.

2 – ان النظرة إلى نشاطات مستوطنة فراكسيناتوم لم تكن تتعدى كونها رحلة "صيفية" ناجحة، أو ربما براءة للذمة الدينية في ممارسة "ركن الجهاد"؟!.

تؤكـد الأدبـيات المعاصرة، ولاحقاً الأدبيات الأوروبية، ان التفسـير الوحيد لتراجع القوات العربية – الاسلامية من المناطق الألبية، يعود إلى غضب السكان المحليين الذي انفجر بعد سيطرة هـذه القوات على سانت مايولوس St. Maiolus وبعد أن فرضت الضـرائب على السكان. ولكن في ضوء المحاولات غير المجدية التـي جـرت خـلال العقود القليلة الأولى من وجودها، فان هذا التفسير يبدو غير مقنع. ان قراءة متأنية لملابسات توسع وتراجع مسـتوطنة فراكسـيناتوم تشير إلى احتمال وجود عامل آخر، قد يكـون مهماً. وهو عامل غفل عنه الكتّاب السابقون، ويتعلق بدور الخليفة في قرطبة في رعاية أو حتى في دعم هذه "الصيفية".

ويـبدو ان موت الخليفة عبد الرحمن في عام 961، واعتلاء ابـنه الحَكَم الثاني العرش، شكل نقطة تحوّل جذرية. فالمستندات المعاصرة والحديثة تؤكد ان الحَكَم كان أكثر تسامحاً وحباً للسلام مـن والـده ؛ وان سياسـاته الداخلية والخارجية، وكذلك سلوكه الشخصي الذي تشير اليه هذه المستندات، تجعل من الممكن القول انه – أي الحَكَم – رفض مواصلة دعم "الصيفية" التي كانت تزعج

مسيحيي اوروبة الوسطى.

ومـــن الممكـــن ان يكـــون قـــد أوقف الاذن بالسماح للقوات المساندة بالتوجه إلى المستوطنة الإسلامية من المرافئ الاسبانية أو عـــبرها. ولعله تأثر باتخاذ هذا القرار بالبعثة التي كان قد أوفدها الملـــك اوتـــو الأول Otto إلى قرطبة. وهكذا، وبانعدام هذا الدعم (المادي والبشري) بات من الطبيعي ان تصبح للسكان المحليين في المناطق الألبية اليد العليا.

وبمـــا انـــه يفترض ان يكون المسلمون قد منوا بخسائر في الأرواح من خلال اشتباكاتهم المتواصلة مع السكان المحليين، وبما انـــه يفـــترض ايضـــاً ان يكونـــوا قد منوا بمثل هذه الخسائر في المعارك التي خاضوها ضد الهنغاريين أيضاً الذين كانوا يجتاحون المناطق الغربية من أوروبة، فقد كان من الضروري بالنسبة اليهم ان يكـــون هـــناك مصدر للدعم يعتمدون عليه. غير ان مراجعة احـــداث منتصـــف القـــرن العاشر تشير إلى تراجع حاد في قوة قبضتهم على المنطقة الألبية بعد منتصف الستينات من العام 900، سيما اذا ما قورنت بسجل النجاحات الباهرة إلى حققوها حتى ذلك الوقـــت. مـــع ذلك فاننا لا نملك اي مؤشرات على ان هذه القوات الاسلامية التي كانت تعمل في ممرات الألب، عانت من انتكاسات أو مـــن هزائم على يد السكان المحليين أنفسهم. واذا كان ثمة من أمر، فهو انه كانت تجري عملية انسحاب للقوات الإسلامية عندما وقع حادث سانت مايولس St. Mailus في ممر سان برنارد الكبير St. Bernard. ممـــا يؤكـــد أو يعـــزز الاحتمال بوجود تغيير في

سياسات الخليفة فرض هذا الانسحاب التراجعي، ومما يقدم بالتالي تفسيراً أكثر عقلانية لظاهرة اضمحلال الوجود الاسلامي العربي في المناطق الألبية.

وفي سجل الوقائع الرسمية الفاتيكانية ان البابا جون الثامن الذي اعتلى السدة البابوية في 872/11/13 خاض سلسلة معارك ضد العرب المسلمين (السراسين). وانه تمكن بمساعدة سكان روما وحدهم من الحاق الهزيمة بهم في تيراشينا terracina. غير ان الملك تشارلز الكبير Charles the Gross وبعد ان اعتلى العرش، اخل بوعده للبابا، واحجم عن مساعدته في مواصلة الحرب على العرب. فكانت النتيجة خسارة البابا للحرب و اضطراره إلى دفع تعويضات كبيرة إلى المسلمين. وقد استمر البابا جون الثامن – وكان إيطاليا من مواليد روما – في السدة البابوية مدة عشر سنوات ويومين. ولدى وفاته في عام 882 دفن في الكهوف الخاصة بمقابر البابوات في الفاتيكان.[14]

المؤشرات الأثرية:

احتفظت الممرات الألبية التي تفصل شمال وغرب أوروبة عن إيطاليا بقدر كبير من أهميتها الجغرافية حتى السبعينات من القرن العشرين أي حتى عام 1970، ولذلك من المفيد تلخيص وتحليل المتوفر من المعلومات التي تتعلق بهذا القرن من نشاطات

(14) Memo Caporilli – The Popes, the Ecumenical Counsils. Edi 2003. P. 35.

المسلمين العرب.

يـبدو ان البحث المنظم عن الآثار المتعلقة بالمسلمين العرب فـي جـنوب فرنسا والمناطق الألبية لم يبدأ الا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. فالكتّاب الأولون الذين أبدوا اهتماماً بتلك المرحلة، نقّبوا بصورة خاصة في القلاع والتحصينات المختلفة التي تعود إلـى المسلمين العرب، وذلك استناداً إلى الروايات المحلية واحياناً إلـى بعـض المعلومـات الموثقـة[15]، وإلـى القلـيل جداً من المخطوطات.

اسـتمر ذلـك حـتى قام جون لاكام Jean Lakam بأبحاثه المستفيضـة عـن الوجود العربي الاسلامي في جبال الألب. وقد شـمل ذلك المقابر والاسلحة، والنقود والآبار، والمباني[16]، وأهم من كل ذلك، اكتشاف "المحراب" في جدران عدد من الكنائس في جـنوب فرنسا وخاصة في ناربون Narbonne[17]. ومن الممكن كذلـك ان تكـون بعـض الكنائس والكاتدرائيات القائمة اليوم في مـنطقة الـ"فـار Var " ووادي الرون Rhone، قد بنيت أساساً

---

(15) اشار العديد من المؤرخين امثال Reinaud, de key, Keller إلى وجود عدد كبير من الأبراج والتحصينات الاسلامية علماً بأن البعض منهم يعزو هذه الأبراج إلى الرومان!.

(16) ان اكثر المخطوطات شهرة هو المخطوط الذي وجد في كنيسة صغيرة (بورج سان بيار – مونجو) التي تقع على الطريق إلى ممر سان برنارد وهي مكتوبة بين عامي 1019 و 1038، وقد انتزعت من موقعها وأعيد تركيبها في عملية بناء جديدة جرت في عام 1739.

(17) Jean Lacam, Les SarrazIns dans le haut moyen-age Francais, Paris (1965).

كمساجد وتمّ تحويلها بعد ذلك. ومن سوء الحظ ان بحثاً مماثلاً لم يجرِ حول هذا الأمر في سويسرا، ولم يسمح بإجرائه في الأساس.

المؤشرات اللغوية:

لعل الخلاف الأشد حول الوجود العربي الاسلامي في المناطق الألبية يقع في دائرة البحث اللغوي. ويعود هذا الخلاف إلى عدة أسباب:

اولاً: هناك تفاسير متباينة حول مصدر العديد من اسماء الاشخاص وأسماء المواقع في المناطق الألبية. وقد ادى ذلك إلى اعتقاد عدد من العلماء والكتّاب في القرن التاسع عشر بأن بعضها يعود إلى اصول عربية)[18]. (ومما يعزز ذلك وجود عدد كبير جداً وبشكل غير طبيعي من اسماء المواقع في سويسرا التي تبدأ بـ "ال" التعريف العربية. ومن الأمثلة على ذلك اسماء مثل:

الماجل: Al magell

البولا: Al bula

البانا: Al bana

البريس: Al bris

وهذا غيض من فيض.

ثانياً: هناك مواقع عديدة في شمال إيطاليا (وخاصة في وادي

---

(18) يعتبر المؤرخ الألماني Engelhart أول من اشار إلى الأسماء العربية في عدد من المواقع الألبية في كتاب له صدر بالألمانية في بازل عام 1840.

أنــزاش Anzasc) وفــي جنوب سويسرا وفي شمال فرنسا تحمل لفظــة مور Moor كجزء من الاسم. وعلى سبيل المثال جبل دي مور Mont de Maures (في جنوب فرنسا).

وجــبل مــورو Mont Moro (علــى الحــدود بين إيطاليا وسويسرا).

ان الامــر المثير حقاً في معظم هذه الحالات هو ان المواقع التــي تحمــل هذه الاسماء كانت اما مواقع للمسلمين العرب حيث اقــاموا فــيها حصــوناً وقلاعاً، أو انها تقع في طريق الممرات والطرق التي سلكوها أو التي سيطروا عليها واستخدموها لفترات طويلة.

ان بحــثاً لغوياً من هذا النوع هو بحث تخميني بدرجة عالية ومن المستحيل حتى الآن على الأقل، تحديد:

أ- اي لغة أو لهجة اعتمد المسلمون.

ب- كيف كان لفظ عدد من الكلمات الاساسية.

ج- اي تحويــر طرأ على الكلمات العربية على مرّ القرون من خلال اللغات واللهجات الألمانية والفرنسية والإيطالية.

ثــم إن هــناك المــزيد مــن الاشكاليات التي تتعلق بهذه التخمينات. منها ان اسم اي موقع في سويسرا يبدأ بحروف أ - ل - ب يصــبح موضــع شك على الفور. ذلك انه ربما يكون الاسم المتداول مشتقاً من الألب. لذلك لا يمكن إيلاء ثقة مطلقة بأن تكون أسماء هذه المواقع كلها من مصادر عربية حكماً.

ولكـــن علـــى الرغم من وجود أسماء اخرى من المرجح ان تكـــون مشـــتقة من اسماء عربية، فاننا لا نملك اي منهجية علمية لتثبيت هذا الربط. وهذه لائحة مختصرة بأسماء المواقع التي يعتقد علـــى نطاق واسع انها مرتبطة بوجود المسلمين العرب والتي لا تزال مستخدمة حتى اليوم[19]:

- مدينة جسر السراسينوروم pons Saracenorum (وهي مدينة هامـــة على طريق ممرّ برنينا، تدعى اليوم Pontresina) اي جسر المسلمين العرب.
- المحل (قرية في وادي الساس) Almagell
- إلى العين (جبل قرب وادي الساس) Allain - Allalain
- العين (جبل في وادي الساس) Alp Aien
- مشـــايل ومشـــبل (سلسلة ينابيع مياه في وادي الساس واسمها الأصلي Mischabel (Mushbil Mushabil أشبال الأسد.

جابـــي – أي جـــامع الضرائب (قرية في الطريق إلى ممر سيملون واسمها الأصلي Gstein- Gabi (Jabi.

تجـــدر الاشارة هنا لى ان الاسم الأول فقط من هذه اللائحة موثق في المصادر المعاصرة[20]. ومما لا شك فيه على الاطلاق

---

(19) أنظر فيليب حتي – تاريخ العرب، ص 605 حيث يربط الاسم الذي أطلق على العرب المسلمين Maur بسبب لون بشرتهم السمراء التي تشبه لون الكستناء Marron.

(20) لا يزال الجدل قائماً في سويسرا حول العلاقة بين هذه الأسماء وأصولها العربية. مع ذلك يبدو ان القبول بهذه الأصول العربية اصبح الآن اكثر مما

ان مصدر اسم بونترسينا Pontresina هو الاسم الوصفي اللاتيني بمعنى جسر السراسين Saracens. وهذا يعطي الانطباع بأن السراسين (اي المسلمين العرب) اقاموا هناك جسراً هاماً. اكثر من ذلك، ان الاسم العائلي الاكثر تداولاً في المنطقة هو: سرّاز Sarraz وهو اسم يرتبط بغطاء للسلاح يشبه على شكل الجسر[21].

اضافة إلى ذلك هناك اسماء العديد من المواقع:

- قصر سراسين Chateau Sarasim

- جسر سراسين، اضافة إلى اسماء عدد من القرى الصغيرة في غرب سويسرا التي تتناثر شمالاً حتى برنر جورا Berner Jura (حفرة برنر) (السراس La Sara) والتي يعتقد ان اصولها تعود إلى المسلمين العرب (السراسين). وبما ان ثمة وثائق تؤكد ان هذه التسميات لم يكن لها اي ذكر قبل المسلمين، وأنها عرفت بهذه الأسماء من بعدهم فيمكن القول ان ثمة علاقة تاريخية بينهما. مع ذلك فإن الأدلة العلمية لإثبات ذلك كله ليست متوفرة بالكامل.

ان الاسماء التي يظن انها مستخرجة من أصول عربية تثير القدر الأكبر من الصعوبة. ويمكن الاعتقاد بأن الصلة المنطقية بين تعبير معين باللغة العربية وما يدل عليه في الوقت الحاضر يؤكد صدقية هذا الربط. غير ان هذا المنطق يصطدم

كان عليه في السابق، ذلك انه لا يوجد لهذه الكلمات اي اصل في اللغات اللاتينية أو الالمانية أو السلتية.

(21) ان التقاليد المحلية المستمرة حتى اليوم تربط أصول هذه العائلة بالمسلمين العرب الذين استوطنوا في هذه المنطقة.

بصعوبات معينة. فالبحث في الأسماء العربية التي يفترض ان تكون محل استخدام في مثل هذه المناطق، (مثل: الثلج والجليد والممر والانهيار الثلجي والشقوق والحواجز والسيل، وسواها) ليســت على تماثل مع الاسماء المتداولة. غير ان ذلك وحده لا يكفي بشكل كامل لاستبعاد أسماء المواقع التي يعتقد انها مشتقة من العربية. فهي تشير إلى صعوبة الاحتفاظ بأسمائها لمدة ألف عــام من دون تغيير أو تحوير. أكثر من ذلك، ففي واحدة من المواقع التي أشرنا اليها اعلاه، مشبل Mushbail، ثمة من الأدلة ما يشير إلى ان الاسم ربما يكون مشتقاً من لهجة محلية. وفي اعــتقاد احــد المؤرخيــن المرموقين، فان هذه السلسلة الجبلية بــالذات تستمد اسمها من اسم محرف هو Mistgabel ومعناها (شــوكة السِّــماد)، وهو اسم يشبه إلى حد كبير احدى الأدوات الزراعية المحلية المستخدمة على نطاق واسع.

ومما يعزز هذا الاعتقاد وجود العديد من المواقع في المنطقة التــي لــم تحمل اي اسم على الاطلاق حتى وقت متأخر. فبعض الاسماء المعروفة اليوم ربما تعود بشكل مباشر إلى الأحداث التي وقعت خلال السنوات الخمسين الماضية والتي لا يعرف مصدرها ســوى المحلييــن من السكان (المسنّون منهم) الذين يتذكرون تلك الأحــداث. (يبدو ان مصدر هذه التسمية ليس جزءاً من الفولكلور المحلي).

ومن جهة ثانية يجب ان نضيف إلى ذلك كله ان السكان المحليين فــي هذه الوديان الجبلية يشعرون بحساسية مفرطة تجاه تصنيفهم بأنهم

مـــن أصـــول اســـلامية – عربـــية. فقد رفضوا بأشد التعابير[20] هذا التصنيف. وربما يكون ذلك قد أثّر على صحة المعارف المحلية وعلى موضوعية البحث العلمي، وساهم تالياً في دفع الأمور نحو البحث عن تفاسير بديلة بما يدعم هذا الجدل الكلامي[22].

الدلائل الاقتصادية:

يعـــتقد بعض البحاثة ان العرب المسلمين ساهموا في تطوير الحياة الاقتصادية للسكان الذين كانوا تحت سيطرتهم في المرتفعات الألبية، وخاصة في فرنسا وسويسرا. ففي فرنسا على سبيل المثال تتضمن هذه المساهمات:

أ – ادخـــال زراعة القمح وخاصة في منطقة الفار Var. ويعرف هذا النوع من القمح في فرنسا باسمين هما القمح الأسود Blé noir. وممـــا يؤكـــد علـــى ذلـــك الاسم الثاني له وهو قمح السراسين (اي القمح العربي الاسلامي).

ب – ادخـــال زراعـــة شـــجر البلوط في المنطقة المحيطة بمنطقة فرينيه Freinet، كما تشير إلى ذلك الروايات المحلية.

ج – ادخـــال الطريقة العربية في تحويل لب خشب الصنوبر إلى

---

(20) المصدر السابق.

(22) يؤكد احد المؤرخين السويسريين المرموقين بيتر جوزف روبن Peter J. Ruppen في القرن التاسع عشر ان بعض السكان المحليين هم من نسل العرب المسلمين، كما يعزو اليهم فضل تحويل الوادي إلى حقول صالحة للزراعة.

قطـــران لتشغيل المراكب البحرية. ودعماً لذلك يشير هؤلاء الباحثون إلى ان الكلمة الفرنسية لقطران شجر الصنوبر هي قـــودرون Goudron، وهـــي مشـــتقة مـــن الكلمـــة العربية قطران[23].

مع ذلك فان هذا الدليل ليس مجرداً من الاشكاليات، انه يعتمد مـــن جهـــة على الاشكاليات اللغوية، ومن جهة ثانية على التقاليد المحلـــية. في الحالة الأولى فان هذه الاشكاليات لا تظهر ارتباطاً طبيعـــياً بين الاسم والمسمى بشكل واضح، وفي الحالة الثانية فان الروايات المحلية لا يمكن الاعتماد دائماً عليها.

ان لبعض الأدلة حضوراً أقوى، ويمكن الاعتماد عليها أكثر. ويبدو ان المسلمين العرب قاموا بأعمال منجمية (حفر مناجم بحثاً عن المعادن) وخاصة في تاند Tende ولافيرييه La Ferrier قرب برشلونة Barcelonette، حيث صنعوا كما يبدو الأسلحة. وفي هذه الحالـــة جـــرى البحث التنقيبي فعلاً في هذه المناجم التي لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم.

أكثر من ذلك، ففي المناجم قرب تاند (وكذلك في مناجم فالوريا Valuria) هـــناك معـــارض تحمـــل اسم "معرض المسلمين العرب" Gallerie Sarrasine، وذلـــك لأنهـــم (أي المسلمين العرب) هم الذين قاموا بحفرها (وهذه حالة مثبتة من خلال الآثار المتبقية).

---

(23) يذهب راينود Reinaud إلى أبعد من ذلك فيؤكد ان الخيول المشهورة Camargue هي من نسل الخيول العربية.

امـــا في سويسرا فان الأدلة تبدو أقل وفرة وتالياً أقل جزماً. وفـــي الواقع فان كل ما قُدِّم من حجج يتوقف على روايات محلية، رغـــم ان بعـــض المظاهر الاستثنائية في المناطق المشكوك فيها تستحق الاهتمام. مثالاً على ذلك، توجد رواية محلية في أحد وديان الـــرون Rhone تقـــول ان المسلمين العرب عندما أقاموا في هذا الـــوادي ادخلوا زراعة نوع معين من العنب، الذي لا يزال يزرع هناك حتى اليوم.

وفـــي الواقـــع فان الخمر الذي يعصر من هذا العنب يعرف محلـــياً باسم Heiden Wein اي خمر الوثنيين، وذلك كمؤشر إلى انـــه ادخـــل عن طريق غير المسيحيين. ويمكن اعتبار هذا الامر مؤشراً في حد ذاته.

وهـــناك من يعتقد ان المسلمين العرب هم الذين ادخلوا لحم الغـــنم كمصدر للحوم. كما ان امتناع السكان المحليين عن تربية الخنازير لا يمكن تفسيره الا على انه يعود إلى فترة حكم المسلمين العرب.

وباختصـــار لا يمكن القول بأن ثمة مؤشرات كثيرة على النشاطات الاقتصادية التي قام بها المسلمون العرب، ولكن من جهـــة اخـــرى، فان ما يتوفر لدينا من أدلة يشير إلى انه كان لنشاطات مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum أثر أكبر مما يبدو مـــن خـــلال قـــراءة الوقائع المعاصرة.. ربما كانت نشاطات المســـلمين العرب اكثر تنوعاً وأبعد مدى مما كان يعتقد. ومن شـــأن ذلك ان يطرح السؤال حول ما اذا كانوا قد قرروا البقاء

طويلاً في هذه المناطق ثم تراجعوا عن هذا القرار بتوجيه – أو بضـــغط – من الخليفة (الحَكَم) في قرطبة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

المؤشرات العنصرية (الاثنية):

تعتبر هذه المؤشرات المصدر الاكثر جدوى، وهي في الوقت نفســـه، المجال الاكثر اهتماماً لتأكيد وقائع الأحداث الماضية من خلال البصمات المعاصرة.

ففي الحالة الفرنسية، وجد الباحثون ان عدداً من الاستخدامات والعـــادات المثـــيرة للاهـــتمام في بروفنسا Provence وفي وادي الرون Rhone تعود إلى زمن الفتح الاسلامي – العربي. ومن هذه العـــادات بعـــض الرقصات الشعبية – الفولكلورية، والاحتفالات الخاصة المتعلقة بخروج المسلمين العرب من القرى الصغيرة. هنا نجد ان بعض الباحثين يتعامل مع هذه المؤشرات بشيء من الشك، وذلـــك بحجـــة ان المساهمة العربية – الاسلامية، ربما تكون قد جاءت في وقت متأخر وتركت بصماتها في مرحلة لم يكن السكان القرويون يعرفون عنها الكثير.

ومن جهة ثانية وافق العلماء الاختصاصيون في تلك المرحلة (مطلـــع القـــرون الوسطى) ومن زمن طويل، على ان الغزوات العربية الاسلامية، وعلى ان الوجود العربي الاسلامي في جنوب فرنسا تركا آثاراً بعيدة المدى. والسؤال هو: إلى اي درجة؟ وثمة سؤال آخر مرتبط بالموضوع الحالي وهو: هل يمكن (أو هل من

الضـــروري) الفصل بين المؤشرات الواضحة عن نتائج الغزوات والاحـــتلالات التي وقعت في منتصف القرن الثامن، عن تلك التي وقعت في منتصف القرن العاشر؟.

بالنسبة للجواب على السؤال الأول، فان بعض العلماء يعتقد ان التأثـــير كـــان بنيوياً، وانه غيّر بشكل كامل مستقبل أوروبة. وبالنسبة لعلماء آخرين فان تلك الاجتياحات دمرت الوحدة الثقافية والـــتجارية للبحر المتوسط وأدت إلى اعادة تجمّع المراكز الثقافية الأوروبية في الشمال. وهناك آخرون يعتقدون ان هذه الاجتياحات غيّرت من طبيعة العلاقات الدينية – السياسية التي كانت قائمة بما مكّـــن السكان على التعامل عسكرياً مع التهديد العربي الاسلامي بأشكال أكثر فعالية.

مـــن المؤكد انه ليس بالإمكان في اطار هذا البحث تقديم تلخيص وافٍ للاشكاليات المطولة والمعقدة والأدلة المتعلقة بها مـــع النظريات المختلفة حول مدى تأثير العرب المسلمين على جـــنوب أوروبـــة. مـــع ذلك، لا بد من ملاحظة ان اكثر هذه المؤثـــرات تـــداولاً، هـــي التي تتناول اللغة والأساليب الأدبية والعادات الاجتماعية في منطقة بروفنس Provence. اضافة إلى ذلك فان تحليل ومناقشة مثل هذه الأسباب المتعددة، وتأثيراتها (مـــثل دور الـــتطوير التقنـــي في الفروسية، وعلاقات التبادل الـــتجاري، وسياسة مصادرة الأراضي واعادة توزيعها، وحتى المصـــادر الاساسية لعبارة الأرض المقطعة والمقتطعة "Fief" (ولعـــل مصـــدرها فـــيء) مـــن شأنه ان يحافظ على استمرار

الاختلاف حول ما بعد الوجود العربي الاسلامي[24].

وفي الوقت نفسه، يبدو مستبعداً جداً ان تكون هناك حاجة إلى التمييز بين الأحداث التي وقعت في الأوقات المختلفة التي أشرنا اليها. وبكلام آخر فان الإصرار على مواصلة حجب معارف اساسية جديدة (اثرية وأدبية) لا يسمح لنا بأن نفعل لك.

وفي الحالة السويسرية، فان الدليل هو أشد ثباتاً وأكثر تنوعاً. فعلى سبيل المثال فان العديد من البحاثة سجلوا ملاحظات حول الصفات الملفتة لسكان وادي الساس Saas. وهو واد منعزل نسبياً يمتد جنوباً من مدينة فيسب Visp في الرون Rhone وينتهي في ممر نادر الاستخدام وهو ممرّ مونت مورو Monte Moro والذي يؤدي إلى وادي انزا Anza في إيطاليا (عند مدينة ماكوغناغا Macugnaga. وقد سجل أحد هؤلاء البحاثة ملاحظات حول مظاهر "السمات الساميّة" التي وجدها في هذا الوادي وفي الوديان المجاورة له. ولاحظ باحث آخر كيف ان أشكال ومواصفات السكان ذكّروه بصورة عامة بالنماذج التي وجدت في جنوب إيطاليا أو بين الافريقيين الشماليين (اي عرب وأمازيغ شمال افريقيا).

وتجدر الاشارة هنا إلى ان هذه المواصفات المتجمعة في السمات الجسدية والتي كثيراً ما كانت موضع حديث في السابق، لا تزال واضحة حتى اليوم. أكثر من ذلك، هناك باحث واحد على

---

(24) انظر (Henry Pierenne (mohamed and Chaslamage, N.Y. 1939
وفيليب حتي The Legacy of Islam N.Y. 1931, P. 562

الأقــل لاحــظ وجود نسبة عالية من الاسماء المتداولة في جنوب وادي الــرون Rhone تتميز بنكهتها الشرق – أوسطية أو الشمال افريقية[25].

ولعل من أهم العادات التي لوحظت في الاربعينات من القرن العشرين والتي لا تزال مستمرة حتى اليوم:

1 – استمرار رفض سكان وادي الساس Saas تربية الخنازير على الرغم من ان لحمها هو مصدر تقليدي للغذاء في المناطق الاخرى من وادي الرون Rhone.

2 – الطريقة الخاصة لذبح المواشي (من اجل تناول لحومها)؛ وكما لاحظ احد البحاثة فان هذه الطريقة لم تسجل الا لدى بربر (امازيغ) شمال افريقيا.

3 – قلة وجود الغابات والمساحات المشجرة في وادي الساس Saas، إضافة إلى وجود أدلة أثرية تثبت اعتماد نفس الاسلوب في شواطئ شمال افريقيا.

وفي الواقع فان عدداً من الاختصاصيين في موضوع غزوات العــرب المســلمين اشــار إلــى وجود عدد من المستوطنات في المــنطقة، وإلــى الزواج المختلط مع السكان المحليين، سواء في

---

(25) ان مراجعة دليل الهاتف السويسري في كانتون Sud Wallis في سويسرا تؤكد استمرار الأسماء العربية الأصل حتى اليوم. كذلك فان احد الضباط السويسريين اشار في تقرير له أثناء حملة التجنيد التي قام بها الجيش خلال الحرب العالمية الثانية إلى وجود اسماء غريبة تشبه الاسماء البربرية مثل عائلة الحسبورة Borra-Es.

فرنسا أو سويسرا وذلك قبل ازالة قاعدتهم نفسها فراكسيناتوم Fraxinatum.

واضافة إلى الأدلة غير المباشرة هذه، فان من الصعب اثبات هذه الحجة من دون العودة إلى فحص الحامض النووي الامر الذي يتطلب المزيد من البحث. وربما كان للزواج المختلط وللمستوطنات العديدة التي أقامها العرب المسلمون دور في استمرار "فراكسيناتوم"، وفي استمرار هيمنتها على بعض المناطق من دون الحاجة إلى دعم من قرطبة أو حتى إلى استقدام مهاجرين جدد من اسبانيا.

وبما انه لا يوجد بحث منهجي (حول اصول الاجناس والخلايا الجينية والدم) بين السكان المحليين في هذه الوديان والتي يمكن ان تساعد للاجابة على السؤال حول أصولهم، فاننا مضطرون في الوقت الحاضر إلى توسل التخمين لتوضيح ما اذا كانت توجد بالفعل نماذج غير محلية.

المواصفات السياسية:

بما ان السجلات الأوروبية المعاصرة حول غزوات العرب المسلمين معنية بدرجة اساسية بتوفير الأدلة على تهمة "لاانسانية وعلى فظاظة الغزاة المدمرة"، فانه من الصعوبة بمكان التوصل إلى تقدير دقيق ومتجرد لمؤثرات تلك الغزوات على المناطق الألبية، وبصورة أقل على انعكاساتها البعيدة المدى. ثم انه على الرغم من وجود سجلات وكتابات للمؤرخين العرب تغطي هذه

الحقــبة من التاريخ الاسلامي، فانه لا توجد اي اشارة محددة إلى الــتطورات المــتعلقة بمســتوطنة فراكســيناتوم أو إلى الضوابط الادارية التي مارسها العرب المسلمون في المناطق الألبية.

ان الدلــيل الوحــيد الــذي يشير إلى الوجود العربي هو ان العــرب استخدموا عبارة جبل مونجو Jabul Monjaw اسماً لجبل الألــب. وهــو اسم مصدره الاسم اللاتيني الذي كان مستخدماً في ذلــك الوقت، وهو مون جوفيز Mons Jovis، أي (جبل جوبيتير) وكان هذا الاسم قد خصص تحديداً لتسمية منطقة ممر سان برنارد St. Bernard والتي لم تحصل على اسمها هذا - الحالي - الا بعد العملــيات التــي قــام بها (القديس) برنارد نفسه[26]، ضد العرب المسلمين.

مــع ذلــك هناك بعض الأدلة من المصادر المعاصرة لتلك الحقــبة الزمنــية، تشــير إلى ان العرب المسلمين لم يكونوا قساة القلــوب، ولــم يكونوا غير انسانيين، كما جرى تصويرهم (غالباً لاســباب سياســية محلية). فعلى سبيل المثال هناك واقعة موثقة وتبدو ثابتة تماماً جرت مع مسافر في مدينة فيرسيللي Verscelli فــي شمال إيطاليا، فقد وصف العرب المسلمين بأنهم يعيشون مع وبيــن السكان المحليين بطريقة أوحت اليه بأنهم مستقرون تماماً. "فالعرب المسلمون لم يكونوا يحملون سلاحاً ولم يكونوا مزعجين

---

(26) اطلق اسم القديس برنارد St. Bernard على الممر الألبي تقديراً لدوره في تحويل بقية "العناصر الوثنية" (من سكان البلاد الأصليين) إلى المسيحية في القرن الحادي عشر.

للسكان المحليين. وكانوا يشرفون على ادارة المدينة وضواحيها بيد خفيفة "

ويبدو ان العرب المسلمين لم يلجأوا إلى جمع الضرائب وإلى المصـــادرة الا بعد ان تبلغت مستوطنة فراكسيناتوم بانها لن تلقى بعد الآن الدعم من اسبانيا الإسلامية. وقد اشار إلى ذلك بالتفصيل عـــدد من الكتّاب المعاصرين. ولان اللجوء إلى انتزاع الضرائب تناول رجلاً متديناً ومعروفاً في ذلك الوقت، هو القديس مايولوس St. Maiolus مـــن دير كلوني Cluny فقد أدى الأمر إلى تداعيات عجلت بانقلاب السكان المحليين على العرب وتمردهم عليهم. ففي عام 972 كان القديس مايولوس عائداً إلى الدير بعد رحلة حجّ إلى رومـــا. فاستخدم طريق سان برنارد St. Bernard لاجتياز الألب. وبعـــد ان نـــزل من الجهة الشمالية إلى مدن الوادي الواقعة على الطريق الصعودي، اختطف مسلحون مجموعته. وطالب الخاطفون وكانوا من المسلمين العرب فدية مالية مقابل اطلاق سراحهم. دفع الديـــر الفدية وقدرها ألف جنيه من الفضة (وما كان ليفعل ذلك إلا بعـــد أن اضطر إلى بيع معظم موجوداته) وقد حددت قيمة الفدية بحيث توفر لكل عنصر من الخاطفين مبلغ جنيه فضي واحد.

كان لهذا الحادث أهمية خاصة لسببين:

1 - انـــه يوفر لنا الدليل الوحيد على عدد المسلمين العرب الذين كـــانوا متواجدين في المناطق الألبية في ذلك الوقت. ويتمتع هـــذا العـــدد بشيء من الصدقية من خلال حقيقة ان أحداً لم يحـــاول بشـــكل جدي ان يقوم بعمل مسلح مضاد للمسلمين

العـــرب، اي ان عددهم كان كبيراً لدرجة ان أي عمل بديل عن دفع الفدية لم يكن ممكناً.

2 - ان هـــذا الحـــادث كـــان آخـــر الأحداث الكبيرة التي قام به المسلمون العرب في منطقة الممر. وبكلام آخر، فانه يقدم لنا بعض التأكيد إلى نوايا العرب المسلمين بالانسحاب الطوعي إلـــى قـــاعدتهم في فراكسيناتوم. ويبدو ان هذه القوة بالذات كانـــت فـــي طـــريقها إلى فراكسيناتوم عندما وجدت فرصة سانحة للقيام بعملية الجباية الأخيرة.

وبالمحصـــلة، يـــبدو انه في الحالات التي تمكّن فيها العرب المسلمون من انفسهم، وحيث قرروا التواجد الدائم، اعتمدوا نظاماً لـــلادارة أخف وطأة على السكان المحليين من الانظمة الاعتباطية التي كانت مفروضة عليهم والتي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ومـــن جهة ثانية، وإلى ان تتخذ بعض الاجراءات السياسية والاداريـــة (مثالاً على ذلك الاتفاق مع الملك هيغو Hugo) ووقف دعم قرطبة، كان العرب المسلمون يعتمدون بالفعل وبدرجة كبيرة علـــى الامكانـــات التقليدية التي يعتمد عليها عادة أي جيش غازٍ، فيأخذون ما هم في حاجة اليه، عندما يكونون في حاجة.. مع "قليل مـــن الاضـــافة" عندما تتوفر لهم أو لبعضهم على الأقل الفرصة المناسبة.

استنتاجات:

ان وقـــائع هذه الاحداث والدلائل المتوفرة عليها تطرح عدداً من الأسئلة:

اولاً: يلاحـــظ القارئ ان عبارة Saracen (العرب المسلمين) فُضـــلت فـــي الاستخدام على اي عبارة معاصرة اخرى (الا في حـــالات محـــدودة جداً). وقد جرى ذلك بصورة رئيسة لانه ليس واضحاً تماماً مع من نتعامل. فالأدبيات الأوروبية لم تستخدم كلمة "عـــرب". واقتصرت على استخدام كلمة سراسن Saracen للدلالة علـــى الغزاة. وفي حالات قليلة جداً استخدمت كلمة الاسماعيليين Ismaelites أو كلمة المور (المغاربة) Moors. والأمر المثير في ذلك هو ان الوقائع المعاصرة تعترف وتميز بشكل واضح الأصل الاســـباني للمهاجميـــن. فالقسم الأكبر منهم إن لم يكونوا جميعهم، جاءوا من اسبانيا، وتلقوا تعليماتهم من الامير / الخليفة في قرطبة. ولكـــن فـــي الوقت نفسه، فان بعض السجلات تشير اليهم بعبارة "الأفارقة". فمن كان السراسن Saracen حقاً ؟.

يمكنـــنا الجـــواب بأنهم ربما كانوا من المسلمين الأمازيغ – الـــبربر – وليســـوا من العرب. وقد تداول الباحثون المعاصرون مؤخـــراً كثيراً حول هذه الامكانية، وهناك قدر من المنطق لقبول هذا التفسير[27].

---

(27) هناك اسماء بربرية الأصل لبعض المواقع، ولكن من الصعب تأكيد ذلك لعدم وجود قاموس لغوي للبربرية من شأنه ان يسهل مثل هذا البحث العلمي.

واضـــافة إلى المؤشرات التي ذكرناها اعلاه، يجب ان نذكر ان الأمـــراء / الخلفـــاء العرب في اسبانيا كانوا يدفعون القادمين الجـــدد مـــن الأمـــازيغ إلـــى خطوط المواجهة الأمامية للتصدي للحملات الأوروبية عبر جبال البرينيه Pyrenees. ولذلك فانه من المعقـــول جداً انهم ربما كانوا يشجعونهم على القيام بـــ "الحملات الصـــيفية" لإبعاد أي شعور لديهم بالغبن نتيجة عدم مساواتهم مع عرب اسبانيا.

تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنه كان هناك تمايز بين العـــرب والأمـــازيغ المســـلمين، وبصورة عامة كان العرب أهل الســـلطة، وكـــان الأمـــازيغ أهل الجند. كان العرب مدنيون (أهل مدينة)، وكان الأمازيغ جبليون (أهل ريف). كان العرب يعيشون برفاهية، وكان الأمازيغ – خاصة الذين كانوا يُستقدمون من جبال الـــريف فـــي شمال إفريقيا لدعم القوات الإسلامية في الأندلس – يعيشـــون حـــياة تقشـــف. أدى هذا التمايز إلى نوع من الصراع الاجتماعـــي والذي ربما كان أحد الأسباب غير المباشرة لتهاوي الحكم الإسلامي في الأندلس.

ففي الوقت الذي كان المسلمون يقيمون المستوطنات المتقشفة فـــي جبال الألب، كانت المدن الأندلسية جميعها مضاءة الشوارع. وكانـــت المياه الصالحة للشرب تصل إلى كل بيت. وكانت هناك مجـــار صـــحية. وكانـــت الطرق مرصوفة بالحجارة. والأرصفة مغروسة بأشجار البرتقال. كان يوجد في العاصمة قرطبة وحدها

سـبعون مكتـبة عامة في الوقت الذي كان الكتاب تحفة نادرة في معظم مدن أوروبة. وكانت كبرى المكتبات تحتوي على 400 ألف كتاب علمي في الرياضيات وعلم الفضاء والطب والفلسفة والأدب. بعضـها لعلمـاء عـرب وبعضها الآخر مترجم إلى العربية عن اليونانية.

ولكـن في إطار التنافس العربي – العربي حول أيهما تكون عاصـمة الخلافـة قرطبة أو بغداد، قام الخليفة عبد الله الثالث في عـام 940م بإنشـاء مدينـة الزهـراء علـى مسافة قصيرة (5 كيلومـترات) من قرطبة لتكون في تخطيطها وفي عمارتها وفي بيوتات العلم فيها مركز إشعاع علمي وحضاري.

قامـت المدينة على مساحة 113 هكتاراً. وكانت كما أرادها الخلـيفة درة الأندلس في القرن العاشر حيث استقطبت العلماء من كـل الاختصاصـات. كانت شوارعها تتقاطع مع الحدائق العامة وأحـواض المياه. وقد أقيمت فيها قصور من المرمر ذات سقوف مذهـبة وأبـواب عاجـية. حتى أصبحت ترنيمة إعجاب يرددها الأمراء والسفراء والتجار والشعراء والأدباء الذين كانوا يتسابقون لزيارتها. فكانت درّة المدن الأندلسية كلها.

ولكـن بعـد وفـاة الخليفة الحَكَم، خلفه من بعده ابنه هشام (الثاني) وكان يبلغ من العمر أحد عشر عاماً فقط. فانتقلت السلطة الفعلية إلى عدد من الطامحين الذين تنازعوا فيما بينهم طويلاً إلى أن جـاء مـن المغـرب ابن أبي أمير الملقب بالمنصور. وكانت

القـوات التـي حملهـا معـه من المغرب تتألف من مقاتلين من الأمـازيغ، فاحتلوا مدينة الزهراء واستباحوها في عام 1009[28]. وبعـد عـام آخـر سـقطت المدينة بيد القوات الملكية الإسبانية فتعرضـت للنهـب والسلب والدمار. وكان سقوطها بداية لسقوط الحضـارة الإسـلامية الأندلسية التي استمرت 800 عام وانتهت بسقوط غرناطة في عام 1492.

وتـبعاً لذلـك، فانـه من المنطقي ان نضيف توافق الكتّاب المعاصـرين على تقدير المهارات العسكرية لهؤلاء المسلمين في المناطق الجبلية، وإلى تفضيلهم المناطق الجبلية بشكل واضح.

ومـع ان اي قـوة صغيرة مسلحة في ارض معادية تفضل التموضع في مواقع دفاعية في سفوح التلال والجبال، على مواقع لا يمكـن الدفاع عنها في السهول والأودية، فان هذه التوصيفات تعيد إلى الأذهان عدم الاكتراث العربي التقليدي لاختراق المناطق الجبلـية. وللدلالة على ذلك، فان معظم المناطق الجبلية في العالم العربـي تأسلمت ولم تعرّب تماماً. وأفضل الأمثلة على ذلك هي جبال العراق الأكراد والمغرب والجزائر الأمازيغ.

وثمـة سؤال آخر يفرض نفسه في هذا السياق، فلم يشر أي مصـدر معاصر إلى وجود صعوبات لغوية بين العرب المسلمين والسـكان المحليين. وبمـا ان المهاجمين تولوا ادارة الممرات الرئيسـة لمدة جيل تقريباً، فان ذلك قد لا يكون امراً غير طبيعي،

---

(28) Maria Rosa Menocal, Ornament of the world, little, Brown-2000, p. 96.

علـــى الاقـــل بالنســـبة لهذه لمناطق. مع ذلك وبالرغم من ان كل الســـجلات المثـــيرة للاهـــتمام تتعلق بالغزوات اللاحقة، فان هذا الموضوع لم يطرح على الاطلاق، لماذا ؟.

ان الجـــواب على هذا السؤال تحديداً تتضمنه الحقيقة التالية: وهـــي ان مســـيحيين ويهـــوداً من اسبانيا شاركوا في " الصيفية". ورغـــم ان لدينا بعض الدلائل على ان اللاتينية وربما لغات محلية اخرى كانت تدرّس في اسبانيا العربية، فانه لا يبدو ان المشاركين فـــي " الصـــيفية" احتاجوا إلى خدمات لغوية. مع ذلك فان النجاح الذي لا ينافس لعدد من " الصيفيات" وخاصة لصيفية فراكسيناتوم Fraxinetum ادى إلـــى جـــذب "جـــنود الـــثروة" أي إلى الجنود الطامحيـــن بجمـــع الـــثروات عـــن طريق المشاركة في عمليات عســـكرية غير نظامية والذين كانوا متواجدين في ارجاء المنطقة. فنحـــن علـــى صواب عندما نعتقد ان العناصر غير العربية وغير الـــبربرية التـــي شاركت في الصيفيات من اجل مكاسب شخصية تصرفت بشكل عفوي كمترجمين ووسطاء بين العناصر الاسلامية والســـكان المحليـــن فـــي الحـــالات التـــي كـــان التواصل فيها ضرورياً[29].

اضـــافة إلى ذلك ثمة اعتقاد بأنه في المناطق التي تواجد فيها المسلمون العرب بكثافة، كانت هناك اعداد كبيرة من الناس الذين

---

(29) يضيف راينود Reinaud ان هناك العديد من الحملات العربية في قلب أوروبة المسيحية التي واجهها المسيحيون مما ادى إلى انتشار محدود للغة العربية. Reinaud, (P.P. 282-284)

يعـــرفون العربية. وربما يكونون قد اكتسبوها نتيجة لتعايشهم لمدة قرنيـــن مع العرب. ثم إن اللغة العربية في ذلك الوقت كانت اللغة الأوسع انتشاراً في القرون الوسطى.

لا بـــد مـــن بـــذل جهد كبير لمعرفة ما اذا كان الخليفة في قرطبة، وأهم من ذلك، ما اذا كانت وجهة النظر الاسلامية العامة حول إجراءات الحكم وممارسة السلطة الإدارية في الاراضي التي اصبحت بصورة مؤقتة جزءاً من دار الاسلام، قد تأثرت بوجودها لمـــدة قرن كامل بأوضاع المناطق الألبية الخاصة أو اذا كانت قد فشلت في تقديم أي دليل مادي على مثل هذا التأثر.

ان الافتقار إلى اي وصف تفصيلي أو تحليلي لهذه الموثرات من مصادر المؤرخين المسلمين العرب لا يترك لنا اي مجال آخر ســـوى الاعتماد على التخمين بأن الاحتلال أو الاجتياح العسكري لشـــعوب أجنبية ليس معنياً بوضع اجراءات ادارية منظمة. ولكن عندما يتعلق الأمر بادارة طويلة المدى للاراضي الجديدة تبرز مثل هـــذه الاجراءات المنظمة. فنحن لا نملك اي دليل على ان العرب المســـلمين أقـــاموا سلطة ادارية حكومية في جبال الألب باستثناء عملية جمع الضرائب والمكوس.

كما اننا لا نملك اي مؤشرات على وجود نظام قضائي أو اي شـــكل من اشكال متابعة الخلافات بين المسلمين العرب والسكان الاصليين.

وبمـــا ان الخلـــيفة في قرطبة لم يعط اي اشارة إلى وجوب

اســـتتباع هذه المناطق بصورة دائمة بأرض الاسلام، فيبدو انه لم يكن هناك حافز للقيام بالعمليات التنظيمية والبنيوية الحكومية على الـــنحو الـــذي عرفناه في المناطق الاخرى التي كانت تحت الحكم الاسلامي.

وباختصـــار، اذن، فعلـــى الرغم من ان المناطق الألبية في فرنســـا وشـــمال إيطاليا وجنوب سويسرا قد تأثرت بشكل واضح بخضوعها المؤقت للحكام المسلمين، فان العالم الاسلامي لم يعتبر أبداً تلك المغامرة على انها أكثر من "غزوة صيفية" ناجحة بامتياز، فـــي قلـــب أوروبـــة، فـــي الوقت الذي كان مشغولاً بأمور أكثر أهمية[30]!.

(30) من اجل ذلك يشكك الأوروبيون في صدقية وصف المستوطنة العربية – الاسلامية بأنها دولة اسلامية مغروسة في قلب اوروبة المسيحية، كما ورد في الموسوعة الاسلامية.